الموت فى مضيق جبل طارق

مـن يطلق هذه الأنغام الحزينة التى أسمع من بعيد؟.. أمن هؤلاء الراحلـين عنـد الحدود؟ إنهـم يزحفون واقفـين، وزحفهم يذلهـم حتـى العظام، الذيـن كان يفترض بهم البقـاء هاجروا وبدأت رحلتهم قبل الرحيل وأصبحوا أسـرى المنفى. الراحلون يحملون معهم فـى أكياس صغيرة تـراب الوطن لزرع النعناع فـى المنافى. «الحكواتى المغربى محمد شكرى»..

«براهيم»، تركته أمه فى محطة قطارات مراكش، لكيلا تراه يموت جوعاً. تعاطى ابن القطار «براهيم» السـرقة وعمل حمالاً، وبعد أن تعلم تاريخ مراكش عمل دليلا سـياحيا. استمع «براهيم» إلى حكواتى ساحة جامع الفنا يحكى عن الحلم الأوروبى وعن الذهب الذى يتدلى من أغصان الأشـجار فى أوروبا. الحلم بأوروبا قـاد «براهيم» إلى «طنجة»، وهناك عبر جبل طارق مختبئا داخل سـفينة وسط البضائع. فى فرنسا، أدرك «براهيم» الذى نشـأ فى قاع مراكش أنه سيبقى فى قاع باريس متواريا عن عيون الشـرطة المتربصة بأمثاله لترحيلهـم إلى بلادهم. الحكواتى الأمى العجوز فى ساحة جامع الفنا لم يقرأ رواية «اقتسام العالم»، التى كتبها باللغة الفرنسية مواطنه من بلدة «تازه» القريبة من مدينة «فاس» «كبـير مصطفى». ومايزال الحكواتى يحكى عـن الحلم الأوروبى وعن

الذهب الذى يتدلى من أغصان الأشجار فى أوروبا.

تحكى هانيا «بنت الريح» سيرة حياتها، فى الجزء الثانى من ثلاثية الراوى المغربى «كبير مصطفى» (حسب الراوى على نجيب إبراهيم الأكاديمى السورى المقيم فى فرنسا). تفتح «هانيا» «بنت أحمد ابن عبد الله» عينيها على الحياة فى بيت سرّى تقوم عليه «الغول» المدعوة «الحاجة فتنة». وعندما استشعرت «هانيا» هول ما يجرى من فظائع فى الظلمة القابعة وراء البريق الخادع، ورأت أمام عينيها كيف تباع الأعضاء البشرية وتشترى عن طريق الطبيب اللامرئى «سى محمد»، وكيف يتجر بأجساد النساء وتبنى من وراء ذلك القصور، وتقتنى أعاجيب ألف ليلة وليلة، قتلها أعوان «الغول».

عن الراوى «على نجيب إبراهيم» الأكاديمى السورى المقيم فى فرنسا، عن رواية باللغة الفرنسية «ورقة من زجاج»؛ هى الجزء الأخير من ثلاثية الراوى المغربى «كبير مصطفى»، صعد البطل منقطع الجذور الجاهل تاريخ ميلاده قطار الليل، وانزلق تحت مقعد، وراح ينتظر الوصول إلى «طنجة»، المدينة البيضاء التى لم ير شيئا أبيض فيها. وعندما أعيته الحيل فى متابعة السفر إلى الشمال الأوروبى (هل استمع إلى حكواتى ساحة جامع الفنا يحكى عن الحلم الأوروبى وعن الذهب الذى يتدلى من أغصان الأشجار فى أوروبا؟) أدرك البطل منقطع الجذور، أن «طنجة» هى قدره الذى لا مفر منه، فهام على وجهه متنقلا بين حانة سليمان وعصابة الحاج محمد التى تسيطر على

أزقة طنجة. ورغم محاولته التشبث بانتماء ما حين عمل مدلكا للعجوز الاسبانية «هيرتادو» لم يزدد إلا ضياعاً، إذ اتهم بقتل العجوز للاستيلاء على ثروتها، وصار لقمة سائغة للشرطة وملاحقاتهم الكابوسية، التى أجبرته على الاعتراف بجريمة لم يرتكبها.

رحلة حزينة يقوم بها الشباب هربا من بلادهم، يستقلون فيها قوارب الموت المطاطية سعياً وراء الحلم الأوروبى والذهب الذى يتدلى من أغصان الأشجار فى أوروبا.. وتنتهى الرحلة الحزينة بالبحر يبتلع القارب المطاطى وحمولته من الشباب ويلقى بجثثهم إلى شاطئ باتيرو الاسبانى الشهير باسم المقبرة الأوروبية.

الفيلم التسجيلى «الموت فى مضيق جبل طارق»، يصور وصول العامل المغربى «مصطفى» المهاجر فى إيطاليا إلى المقبرة الأوروبية، بحثا عن جثة شقيقه الذى ابتلعه البحر ضمن من ابتلع ممن كانوا على متن القارب المطاطى المتجه إلى الشمال، والعودة بها إلى أمه الباكية المنتحبة التى تنتظر جثمان ولدها لتلقى عليه نظرة أخيرة قبل أن يواريه تراب الوطن، المغرب.

اقتربت عدسة كاميرا المخرج التسجيلى «يواكيم ديمر» من وجوه راهنت بحياتها على الوصول إلى الضفة الأخرى الشمالية، قبل أن تخسر رهانها وحياتها. اقتربت عدسة الكاميرا أيضا من القليلين الذين عندما استشعروا أنهم كسبوا الرهان ولمسوا بأقدامهم رمال شاطئ «باتيرو» الأسبانى، وجدوا الشرطة الأسبانية فى انتظارهم لترحيلهم.

فى رواية «ورقة من زجاج» للراوى المغربى باللغة الفرنسية «كبير مصطفى»، هل كان يدرك بطلها منقطع الجذور، الجاهل تاريخ ميلاده، بعد وصوله «طنجة» المدينة البيضاء التى لم ير شيئا أبيض فيها؛ وبعد أن أعيته الحيل فى السفر إلى الحلم الأوروبى، إنها هى ذاتها «طنجة» التى من شواطئها انطلقت سفن «طارق بن زياد» بجنود كان النصر حليفهم، ومن شواطئها أيضا انطلق الرحالة المغربى «ابن بطوطة» فى رحلة بلغت ربع قرن، عاد بعدها ليموت فيها؟

لماذا أعداد المهاجرين إلى الخارج الأوروبى فى ازدياد على رغم الإجراءات الجائرة التى تتخذها الدول الأوروبية ضدهم؟.. لماذا الهجرة إلى الدول الأوروبية لها طابع الديمومة، وهى السمة التى تأكدت منذ عام ١٩٧٤حيث تقلصت نزعة العودة إلى الوطن تدريجياً؟

يذكرنا تقرير للأستاذ الجامعى فى جامعة محمد الخامس بالرباط «عبدالله برادة» بأن تاريخ الهجرة المعاصرة يشير إلى أن الأوروبيين كانوا يمثلون حوالى نصف السكان فى الجزائر، وثلث السكان فى تونس، وربع السكان فى المغرب، وإلى أنه مع استقلال دول المغرب العربى تباعاً، ومع رحيل الأوروبيين، انعكست دورات الهجرة، وتزايد الطلب الجماعى على الأيدى العاملة المغاربية، التى كانت اقتصاديات أوروبا فى أمس الحاجة إليها بسبب انحسار معدلات المواليد فى أوروبا، وما أدى إليه من خلل فى الهياكل الاجتماعية والاقتصادية، كتزايد نسبة كبار السن، وتدهور العلاقة بين المتقاعدين وبين السكان

النشطين. والطلب على العمالة غير المؤهلة.

أوضح التقرير أنه وعلى مدى ١٥ سنة لجأت فرنسا وبلجيكا وهولندا وألمانيا بانتظام وباستمرار إلى أبعد المناطق في المغرب وتونس بحثا عن رجال أشداء يتمتعون بالصحة والقوة وقادرين على القيام بأصعب الأعمال وأشقها، ومن ثم استقر ما بين ٣٠ ألفا إلى ٤٠ ألف مهاجر مغربي في أوروبا كل سنة، فضلا عن حوالى ١٥ ألفا من التونسيين. لكن فرنسا التي كانت حريصة على تنويع مصادر الهجرة لم تكن متحمسة للأيدي العاملة الجزائرية لأسباب سياسية.

إثر الصدمة النفطية الأولى اعتبارا من عام ١٩٧٤ راحت الدول الأوروبية تغلق حدودها تباعا في وجه المهاجرين إليها من المغرب العربي، ولجأت إلى بعض الأساليب التي تدفعهم للعودة إلى أوطانهم. وهكذا ظهرت أشكال جديدة من الهجرة الموسمية والمحدودة بفترات معينة، وبناء على طلب الدول الأوروبية، على رغم أن بعضها كان يتم بطريقة غير منظمة وتتولاه بعض الشركات السرية التي لا تخلو من النفوذ.

الإعلان المفاجئ من الجانب الأسباني عن اقتراح تسوية لوضعية العمال المهاجرين الأجانب غير الحاصلين على بطاقة إقامة، هل يعني أن الوقت قد حان لرفع الظلم عن «عمال الظلام» المهاجرين غير الشرعيين في أسبانيا، بعد أن استنزفت قواهم وكلت سواعدهم دون مقابل مادي أو معنوي مُجْزٍ؟

مـن جهة، يعد الإعلان فـي حد ذاته مناقضا لسياسـة تناول ملف الهجرة التى اتبعتها حكومة «أزنار» الأسـبانية السـابقة، والتى طالما شـددت على ضـرورة مراقبـة الحدود، ومـن جهة أخرى قد يسـهم التوجـه الجديد لحكومة «ثاباتيرو» الاسـبانية الجديدة فى تشـجيع وانتعاش المجالات التى ينشـط بها التشـغيل غير القانونى كالزراعة والبناء وغيرها. يؤكد تقرير نشـرته مؤخرا صحيفة «ليكسـبريس» أن تسـوية وضع العامل المهاجر سـتجبر أيضا المشغل على أداء المستحقات الاجتماعيـة وما يترتب عليها للعمال الأجانب الذين تقدرهم النقابات بما يزيد عن٦٠ ألف عامل.

لايزال مشروع القانون قيد النقاش بين حكومة «ثاباتيرو» والشركاء الاجتماعيـين، ولم يقـدم بعد فى صيغته النهائيـة، لكن إعلانه قوبل بكثير من التحفظ فى أوسـاط المعارضة الإسبانية التى ترى فيه تشجيعا غير مسـئول للهجرة اللاشـرعية. تؤكد النقابية «أنـا ماريا كورال»: «لا يجب أن ندفن رءوسنا فى الرمال، فالحقيقة واضحة. إذا كان الناس يقصدون إسـبانيا بهذا الكم الهائل، فلأنه يسهل عليهم الحصول على عمل، ولو كان ذلك فى إطار وضعية غير قانونية.

الغـد – تنهى الصحيفة تقريرهـا – كفيل بإثبات ما إذا كان القانون الجديد سـيتمكن حقا من تجاوز حدود النوايا الحسنة ليترجم إلى واقع فعلى يرد الاعتبار لعمال الظلام القادمين إلى إسبانيا للظفر بلقمة عيش من ناحية، ويخدم مصالح إسبانيا من ناحية أخرى.

الواقع يشهد حفل تدشين ثانى أسرع وأكبر خافرة اقتنتها الإدارة العامة للحرس المدنى الإسبانى، لمواجهة الهجرة السرية وتهريب المخدرات بمنطقة حوض بوغاز جبل طارق، والمحدد بحريا وجغرافياً بين سبتة السليبة والجزيرة الخضراء وطريفه وجبل طارق ومنطقة القصر الصغير وطنجة وأصيلة.

الآن يستحضر المغاربة أجزاء من تاريخهم بفتح ملفات سرية من خلال إفادات سياسيين ومعارضين سابقين ومتورطين فى محاولتين انقلابيتين للاطاحة بنظام الملك الراحل الحسن الثانى عامى ١٩٧١، ١٩٧٢ ونشطاء حقوق الإنسان للمرة الأولى عبر وسائل الإعلام الرسمية «إذاعة وتليفزيون». وسيتعرف المغاربة من خلال الوقائع المتلفزة إلى الأماكن التى ارتبطت فى الذاكرة المغربية بأنواع من التعذيب، ضمن ما يعرف فى المغرب بـ «سنوات الرصاص».

هذه الخطوة التى هدفها رد الاعتبار فى شكل عادل ومنصف لضحايا خروقات الماضى فى مجال حقوق الإنسان، يصفها الناشط الحقوقى «ادريس بن كيرى» الذى يرأس هيئة «الإنصاف والمصالحة» التى ترعى هذا التوجه، بأنها نموذج يحتذى كونه يعكس الإرادة السياسية القوية لطى صفحة مؤلمة من الماضى وتحصين المجتمع ضد تكرار مثل هذه الخروقات.

بعد مشـــاركة باحثين وأكاديميـــين فى الجامعـــات المغربية وأطباء نفســيين وعلماء اجتماع فى جلسات الاستماع إلى الإفادات والشهادات، الأمر الذى ســيضفى على الجلسات بعدا تربويا وإعلاميا يكرس لثقافة حقوق الإنســان.. هل ســيكف أنــين الأمهات الثكالى بعد أن يتســلمن جثامين فلذات أكبادهن ويلقين عليها نظرة أخيرة قبل أن يُوَارَوْا تراب الوطن المحبوب؟

وهل يكف الحكواتى الأمى العجوز فى ســاحة جامع الفنا عن سرد الحكايــات عن الحلــم الأوروبى وعــن الذهب الذى يتــدلى من أغصان الأشجار فى أوروبا؟

«أغادير» مدينة البحر والجبل والذكريات

طائر

حديدى آخر صغير، يحلق بنا فوق «مراكش» وقمم جبال أطلس، ووسط سحاب أبيض وسماء زرقاء مزركشة بزخارف البرتقال والبنفسج. داخل الطائرة المتجهة إلى «أغادير» مدينة البحر المحيط فى جنوب غرب المغرب، تقدم لنا المضيفة الأمازيغية عصير البرتقال وابتسامة سخية تضئ وجهها الذى يذكرنى بوجوه «طارق ابن زياد» و «ابن بطوطة» و «ابن خلدون» من الأمازيغيين أصحاب الإسهامات العظيمة فى الثقافة العربية والإسلامية.

صوت قائد طائرة الخطوط الداخلية يبلغنا أننا نحلق فوق «أغادير». أنظر من زجاج النافذة فأجد «أغادير» مدينة ناصعة البياض تستحم فى ضياء الشمس، مستلقية فى دلال على الرمال الذهبية لشاطئ البحر المحيط الممتد بطول عشرة كيلومترات، تتخللها غابات الصنوبر وأشجار الأركان وبساتين البرتقال والموز والزيتون.

منذ اللحظة الأولى لخروجنا من مطار «أغادير» وقبل أن نستقل الحافلة التى فى انتظارنا تستقبلنا الموسيقى وأغنيات «الحيدوس» الأمازيغية. فتيات صغيرات ونساء يرتدين الملابس التقليدية الملونة المزركشة، ورجال يرتدون الجلابيب البيضاء وعلى رءوسهم عمامات

بيضاء وينشدون الأغنيات على وقع الدق على البندير والنفخ فى المزمار والتصفيق بالأيدى.

«حسن أبو الطيب» المرشد السياحى الأمازيغى الذى يرافقنا ويتحدث إلينا باللغتين العربية والفرنسية، يرفض استعمال تعبير «بربر» الذى أطلقه اليونانيون على الشعوب التى كانوا يرونها دونهم فى الحضارة، مثلما أطلقوه على أمة الطليان عندما قاموا بغزوها وكان أن حذا الطليان «الرومان» حذو اليونانيين وأطلقوا اسم «بربرى» على كل من ليس إيطاليا.

الأمازيغ: أقدم سكان المغرب، الذين نزحوا لأسباب جيولوجية وسياسية من ديارهم فى اليمن والجزيرة العربية، وعبروا مصر إلى ليبيا ليستقروا فى الشمال الأفريقى قبل الإسلام، من الخطأ اعتبارهم أقلية عرقية، لأن الثابت هو أنهم الأغلبية الساحقة، لأن عدد العرب الذين جاءوا مع الفتح الإسلامى لم يكن يتجاوز عدة آلاف، وهذا العدد لا يكفى لتكوين أغلبية عرقية، حتى لو أضيف لهم «بنو هلال» الذين قدموا إلى شمال أفريقيا من المشرق العربى.

فى رأى الباحث الجزائرى «موسى شاكر» أن الخلط بين الأمازيغية، كمفهوم عرقى، والأمازيغية، كتراث ثقافى، أدى إلى المغالطة التى شوّشت تفكير عدد من مثقفى شمال أفريقيا، والتى تكفّل الاستعمار الفرنسى بتأجيجها وتحويل الاختلاف إلى خلاف ثم إلى ما يشبه العداء.

ها هى ذى «أغاديـر» أمامى وقد خرجت من تحت الأنقاض، مدينة جديـدة بيضاء، بالقـرب من حطام المدينة القديمـة، الذى لا يزال فى مكانه، حتى لا يغيب عن ذاكرة المدينة وناسها.

الزلـزال الذى ألمَ بمدينة «أغادير» فى عـام ١٩٦٠ وحوَلها إلى ركام من الأنقـاض، هل أفقدها جزءًا من ذاكرتها وأفقـد البعض من أبنائها ذاكرتهم؟. أو أن هناك فى «أغادير» من حاول جاهداً التشبث بذاكرتها وذكرياتها؟

«أغادير» الجديدة مدينة ناصعة البياض فى فضاء ملوَن، تهب نفسها للبحر وللسـائح الأجنبى ويهرع إليها عشاق الشمس والشاطئ والرمال الذهبية الناعمة ومياه البحر المحيط، القادمون من بلاد الشمال البارد. فى المدينة الجديدة البيضـاء «أغادير» الذكريات متوفرة إلا أن الاتجار بها راج بعض الشىء، كما يرى الروائى المغربى «الطاهر بن جلون».

قرار تشـييد مدينة «أغادير» الجديدة هـل كان قراراً منفرداً اتخذه عقل المغرب دون أن يستشـير فيـه القلب العاطفى للبـلاد؟. «أغادير» الجديدة.. البيضاء، التى تفتقد شـوارعها ونواصيها إلى ماضٍ وذكريات هـل أحيطت علمـاً عند بنائها برغبات سـاكنى جبـال أطلس القريبة والصحراء، أو أنها جسـدت الصورة الحلـم التى يتعين أن تكون عليها مدينة للبحر المحيط تقدم المتعة وتبيع الذكريات؟.

أمام نموذج حىَ لمدينة عتيقة بأسواقها وبيوتها ومساجدها ومقاهيها ومدارسـها، أتوقف وأسأل نفسى: هل هو توق القلب العاطفى للمغرب

إلى التشبث بذاكرة المدينة القديمة وذكرياتها؟. غناء ورقص أمازيغى، وفتيات أمازيغيات فى ملابسهن التقليدية أمام عربات خشبية تحمل برتقالاً، يقمن بعصره بعصارة يدوية ويقدمنه هنيئاً مريئاً للزائرين. سجاجيد «زرابىّ» مغربية من النوع الرباطى والفاسى، وأخرى أمازيغية مختلفة فى الشكل الهندسى واللون وعدد العقد، منها زَرْبِيَّة الأطلس الكبير، وزربية شيشاوة. أينما أولّ وجهى فى المدينة العتيقة النموذج الحىّ أر أنماطاً معمارية تحمل تقاليد الماضى وعبقه وسمات بيئة الجنوب المغربى. هذا نمط من البناء القروى المزين والمزخرف فى الأودية المتاخمة للصحراء يذكر بالقصبات والقصور القديمة التى شهدت انهياراً منذ زمن الاحتلال الفرنسى.

الرحلة إلى أعلى الجبل قطعتها الحافلة فى حوالى ربع الساعة. هنا فى الأعالى أطلال قلعة قديمة تشهد على حقبة من تاريخ صراعٍ دموى طويل، وفى الأسفل أطلال «أغادير» القديمة التى لا تبعد كثيراً عن «أغادير» الجديدة الغارقة فى البياض، والمستلقية فى كسل تحت أشعة الشمس على شاطئ البحر المحيط. وهناك فى البعيد سلاسل جبال أطلس ووديان وسهول وصحراء وعيون وقبائل عربية وأمازيغية امتزجت دماؤها عبر القرون.

هنا فى أعلى جبال أطلس، وأطلال القلعة القديمة من خلفى، وأطلال «أغادير» القديمة من أسفل، وصوت الريح فى أذنى، أرى «أغادير» الجديدة البيضاء، ابنة البحر المحيط تحت أشعة الشمس الذهبية،

عقداً من الماس يطوّق عنق الجيل ويزين جبين البحر، وأرانى وقد ولّيت وجهى فى اتجاه صوت الموسيقى على خلفية المنظر الطبيعى وقوس قزح.

صخور الجبل التى ترق لأعواد الزهر فتغدق عليها بالحنان والرعاية، ها هى ذى قد هيأت لأغادير الجميلة الشابة ـ التى تنظر إلى جسدها فى مرآة البحر المحيط كل صباح فى زهو ـ منصة حجرية منبسطة وسط المنظر الطبيعى لتقيم عليها عرضاً للأزياء بصحبة الموسيقى.

فتيات مغربيات فى عمر الزهور، هن مزيج من عرب المشرق وأمازيغ المغرب وأفارقة الشمال، وقد لوحت وجوههن الشمس. تخطر الجميلة المغربية منهن، كغزالة قادمة تواً من الصحراء، على المنصة الحجرية المغطاة بقطع من السجاد ذات أشكال وورود وألوان بهيجة. هذا عرض مختلف للأزياء أقرب إلى لوحات تشكيلية تتوالى واحدة بعد أخرى. تتصدر عارضة الأزياء المغربية الجميلة الرشيقة بقوامها الفارع، وثوبها المغربى القشيب مقدمة اللوحة التى تتشكل خلفيتها من سلاسل جبال أطلس والأزرق المطرز بالورود فى السماء، والفضة فى مياه البحر المحيط، وذهب أشعة الشمس المنثور على الموج والرمال والبيوت البيضاء وبساتين البرتقال فى البعيد.

إنها الموسيقى المرحة الصافية وإنه لسلطانها الخفىّ الذى أتى بغزالة من الصحراء لكى تخطر أمامنا بثوبها المغربى البهيج فى أعلى الجبل، والذى أتى بى أنا من ضفاف نيل جنوب مصر.

نغمة موسيقية ترافق كل غزالة عارضة، وتوافق خطوط ثوبها ونسيجه ولونه وتطريزه. «القفطان» من الحرير أو الساتان الذهبى، ترتديه المرأة المغربية فى الحفلات والمناسبات العامة وترتدى فوقه «الدفينة» وهو ثوب فضفاض مفتوح من الجانبين ومن الأمام، ومطرز بتطريز يعرف بالصقلى. ومكملات القفطان، الحزام الذهبى بأشكاله المتنوعة والمعروف باسم «المضمة» ويكون عادة من الذهب الخالص. ومن الحلىّ المرافقة للقفطان عقد من الذهب أو اللؤلؤ. وقد ترتدى المرأة المغربية تحت القفطان ثوباً خفيفاً من القطن يسمى «تشامير» وقد ترتدى أيضاً السروال التقليدى الذى يصل إلى ما تحت الركبة ويكون فضفاضاً ومطرزاً.

«الجندورة زىّ مكون من قطعة واحدة مطرز بخيوط فضية أو ذهبية أو حريرية فى الصدر والفتحات الجانبية والأكمام، وترتديه المرأة فى المغرب عادة عند استقبال الضيوف وزيارة الأصدقاء.

«التقشيطة» ثوب من الحرير مكوّن من قطعتين ومطرز بأشكال هندسية، وترتديه المرأة المغربية فى حفلات الاستقبال والعُرس. أشهر أنواعه «المخزنية» ويتميز برحابة الكم وانسداله، ويتسم أيضا بتطريزاته الذهبية. و«القشابة» ثوب تقليدى ترتديه المرأة فى الزيارات وعادة ما يكون بغير حزام وله ياقة عريضة.